

الوافي في الوفيات

قل لهذا الوزير قولَ مُحرقٍ ... بثَّهُ الذُّمَّحَ أَيَّـمَما إِبْثَاثِ .
قد تقلَّدتَها ثلاثاً ثلاثاً ... وطلاقُ البناتِ عندَ الثلاثِ .
وفيهم يقول الصولي : .

ذلَّـلَ الدهرُ آلَ الفراتِ ... ورماهم بفُرقةٍ وشتاتِ .
ليت آلَ الفراتِ عُدُّوا جميعاً ... قبلَ ما قد رأوه في الأمواتِ .
فلعَمري لراحةُ الموتِ خيرٌ ... من صغارٍ وذلَّةٍ في الحياةِ .
لم يزالوا للملكِ أنجُمَ عزٍّ ... وضياءٍ فأصبحتِ كاسفاتِ .
ومما قيل فيهم : .

يا أيها اللـاحِزُّ الضنينُ بمالهِ ... يحمي بتقطيبِ قليلِ نوالهِ .
أوـما رأيتَ ابنَ الفراتِ وقد أتى ... إِدبارُهُ من بعد ما إقبالهِ .
أيامَ تطرُقُهُ السعادةُ بالمنى ... وينال ما يهواهُ من آمالهِ .
فخلا من الذُّمِّ عَمى وأصبح يشتكى ... أقياده ألماناً على أغلالهِ .
وكذا الزمانُ بأهلِهِ متقلِّبٌ ... فاسمح لما أعطيتَ قبل زوالهِ .

روى ابن النجَّار في ذيله بسنده إلى أبي الذِّصْرِ المفضَّل بن علي الأزدي كاتب المقتدر ومؤدِّبه أنه حضر مجلس أبي الحسن بن الفرات وعن يمينه أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجرَّاح وعن يساره القاضي أبو عمر محمد بن يوسف وقد تأخَّر حامد بن العباس عن الحضور فقال الوزير : أتعلمون السبب في تأخر حامد ؟ فقالوا : لا . قال : ولكنَّني أعلم سبب ذلك ؛ انصرف البارحة مساءً وداره بعيدة فأبطأ على جاريته فلمَّا وصل استقبلته وقبَّلت جبينه وقالت : يا مولاي أقلقنتني بتأخُّرك فما الذي بطَّأ بك ؟ فقال : موافقة الوزير - أعزَّه - على الحساب . فقالت : يا مولاي حسابُ في الدنيا وحساب في الآخرة حمل [] عنك . ثمَّ نزعَتْ خفَّيهِ وقدَّمت نعليه وأفرغت عليه دست ثياب قد بخَّرتها وأخذت ثيابه عنه وقدَّمت إليه الطهور . فلمَّا صلى المغرب وعشاء الآخرة قدَّمت إليه طبقاً تولَّت لغيبته ألوانه وقد وقفت مع الطبخة تحرَّياً لِنظافتها وأخذت تلقمه وتأكل منه ثمَّ تولَّت غسل يديه وقدَّمت إليه الشراب وأصلحت عودها فشرب ثلاثة أرطال وشربت مثلها واعتبقا . فلمَّا أصبح دخل الحمام وخرج فسفته من الجلَّاب بالثلج ما قطع خماره وقدَّمت إليه طبقاً من المحمَّضات ألواناً طيِّبة وهو الآن يأكل . ثمَّ قال : غسل يده ولبس ثيابه . ثمَّ قال : ركب وتوجَّه إلينا . ثمَّ لم يزل ينزله الطريق إلى أن قال : هو في

الدهلير . ثمّ قال : يدخل حامد . فرفع الستر ودخل حامد . فلمّا رأيناه ما تمالكنا أن ضحكنا . فلمّا سلّم وأخذ موضع جلوسه قال : ما الذي أضحككم عند مشاهدتي ؟ قلنا : صدّة حدس الوزير فإن شئت اقتصنا . فقال : تفصّلوا . فاقصنا ما جرى بأسره فتحيّر ثمّ قام على قدميه وحلف باٍ - جلّت أسماؤه - لولا أنّّه يعلم أن الوزير أعف خلقاً لقدّرت أنّها هي حدّته ما جرى ؛ فما أخلّ بشيءٍ منه . فضحك الجماعة فالتفت الوزير إلى علي بن عيسى فقال : يا أبا الحسن ما أنفع الأشياء للمخمور حتّى ينجلي خماره ؟ فقال : واٍ ما عاقرتُ عليها ولا سكرت منها ولا أعرف داءها ولا دواءها فأعرض عنه والتفت إلى القاضي أبي عمر فقال : أيّها القاضي أفتنا فيما سألنا عنه أبا الحسن - أعزّه - فلم يجبنا . فقال القاضي : نعم أطال اٍ بقاء الوزير ؛ قال سبحانه وتعالى : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " وقال رسول اٍ صلاى اٍ عليه وسلّم : " استعينوا على كلّ صناعة بأهلها " . ووجدنا المقدّم في هذا الأمر والمُجمّع على اختصاصه به أبا نواس الحسن بن هانئ ووجدناه يقول في هذا المعنى : .
داوٍ ماري من خماره . . . بابتة الدنّ وقاره ° .
من شرابٍ خُسْرٍ وريّ . . . ما تعنّوا باعتصاره ° .
طبختهُ الشمس لمّا . . . بخل العليجُ بناره ° .
فنرى - وباٍ توفيقنا - أن من تناول منها شيئاً قطع به الخمار وكسر سوره . فقال الوزير لأبي الحسن : أما كنتَ بهذا الجواب أولى للطف الكتّاب ودماثهم ؟ ولكن أبا اٍ إلاّ أن يدلّ على فضل قاضي القضاة ولفظ نفسه وحسن استخراجه وقوة حسّيه وكمال فتوّته .
الشيخ علي بن نبهان